الطريقة، وأصالتها وقيمتها العلمية من حيث قيامها على أسس كان «للمؤسسين» فيها «مبادىء» قويمة، وليس على أشياء مفتعلة كما ذهب «الساعون» إلى إقامة هـذا الكيان الخيـالي في عصرنـا. كاد هؤلاء «الساعون» أن يوهموا الدارسين ممن هم من أصحاب الصنعة وغيرهم، أن ما ذهبوا إليهم علم خالص وبناء يقوم على قواعد، وفشا هذا حتى إذا أذن للناظر الحصيف أن يتعقب هذه الإدعاءات وجدها شيئاً أقيم على أمور صغيرة أريد لها أن تكون شيئاً في خيالهم، فأوهموا غيرهم بصدق ما أرادوا. لقد ابتدعوا لكل من «المدرستين» أصولاً تختلف في الواحدة عن الأخرى. إننا لا ننكر وجود منافسة بين المصريين، وإن الكوفيين أرادوا أن يفيدوا من الحاكمين وأن يكون لهم صلة بهم فبادروا في هذا السبيل وقطعوا الطريق على البصريين، وكان للحكام أثر في إذكاء النزاع والمنافسة، بين هؤلاء وأولئك، ولكن ألم يحدث شيء من هذا بين الكسائي والفراء وهما كوفيان، حين جاء الفراء إلى بغداد وعرف ما نال الكسائي من حظوة وجاه؟.

وقال الفراء: «لما خرج الكسائي إلى بغداد، قال لي الرؤاسي: قد خرج الكسائي وأنت أميز منه، فجئت إلى بغداد، فرأيت الكسائي، فسألته عن مسائل من مسائل الرؤاسي، فأجابني بخلاف ما عندي، فغمزت قوماً من علماء الكوفيين كانوا معي، فقال: مالك قد أنكرت لعلك من أهل الكوفة، قلت: نعم، فقال الرؤاسي يقول: كذا وكذا وليس صواباً. . . . .[1] على أنه لزمه بعد ذلك وأخذ عنه.

وقد تجد الخلاف في المناظرات بين بصري وكوفي، ولكنك لا تعدم أن تجد كوفي آخر يرى ما يراه البصري فيخالف صاحبـه أو أصحابه، ومن ذلك ما نجده من قول المبرد في «المقتضب»[2]:

---

(١) نزهة الألباء.

(٢) المقتضب ٣/٢٣٢.